تبادل الضمائر في سورة (الكافرون) – دراسة تحليلية –

د. آلاء طارق محمود آغا
قسم اللغة العربية / كلية الآداب
جامعة الموصل

د. عائشة خضر أحمد
قسم اللغة العربية / كلية التربية للبنات
جامعة الموصل

الاستلام ١٨ / ٠٦ / ٢٠٠٧ **القبول** ١٥ / ٠٨ / ٢٠٠٧

Abstract

By gaining a study pronouns of great importance from being signs of a certain language in the social sphere, whether speaking or telling or absent, here is the pronouns of the strong connecting factors between the article and here. The pronouns play in Verse unbelievers prominent role, a pivotal role through synthetic formulations involved, as witness the exchange pronoun between speaker and binding on Compositions produced opposite and parallel manner of the non-linguistic elements (primarily) a basic role, because these Verses linked descends position happened to the Prophet (peace be upon him) with the infidels of Mecca, as well as the role of pronouns in textual cohesion among other factors we in the course of research including redundancies and conjunction.

المستخلص

تكتسب دراسة الضمائر أهمية كبيرة انطلاقا من كونها علامات لغوية تمثل ذاتاً معينة في المحيط الاجتماعي سواء أكان متكلما أم مخاطبا أم غائبا، من هنا تعد الضمائر من عوامل الربط القوية بين السياق اللغوي (المقال) والسياق غير اللغوي (المقام).

وتنهض الضمائر في سورة (الكافرون) بدور بارز ومحوري من خلال الصياغات التركيبية الداخلة فيها، إذ نشهد تبادلا للضمائر ما بين متكلم ومخاطب أنتج تراكيب متقابلة ومتوازية بطريقة كان للعناصر غير اللغوية (المقام) دور أساسي فيها، لان هذه السورة ارتبط نزولها بموقف حدث للرسول (صلى الله عليه وسلم) مع كفار مكة، هذا فضلاً عن دور الضمائر في التماسك النصي إلى جانب عوامل اخرى رصدناها في اثناء البحث منها التكرار والعطف.

وقفة مع الضمائر

تضطلع الضمائر بدور جوهري ومهم تمليه مكانتها ودورها بين أبواب النحو العربي من حيث التركيب والدلالة، والضمائر في مختلف أحوالها وضعت لمتكلم، أو مخاطب، أو غائب تقدم ذكره لفظا أو معنى[١]، وتتجلى ميزة الضمير وأهميته انطلاقا من كونه "لا يدل على مسمى كالاسم، وإنما يعمل على تعيين مسماه، ولا يدل على موصوف بالحدث، ولا على حدث وزمن كالفعل" [٢]، وبما أن الضمير يعين مسماه فان توظيفه يأتي وعلى نحو واسع للاستعاضة به عن الاسم الظاهر ما دام اللبس مأمونا، وهذا يجعل منه وسيلة من وسائل الاقتصاد اللغوي.

ولعل الضمير من ابرز العلامات اللغوية التي تربط المقال بالمقام، لأنه "ينطوي على ازدواجية صريحة، فهو كلي في اللغة جزئي في الكلام: (أنا) او (أنت) او (هو) ضمائر يمكن ان يقولها أي شخص فتعنيه بذاته. وهذه الازدواجية التي يحملها الضمير تسمح لنا ان نميز بين الضمير والشخص، فالضمير هو الملفوظ اللغوي في صيغه المعروفة (انا – انت – هو)، والشخص هو المعني الخارجي، والعلاقات اللغوية الداخلية هي التي تحدد الضمير، والعلاقات اللغوية الخارجية هي التي تحدد الشخص"[٣].

من جانب آخر ترتبط كل هذه العناصر اللغوية وغير اللغوية بعالم أوسع وأكبر وهو عالم الخطاب الذي ينشأ بتوافر متكلم ومخاطب، ولا يكونان كذلك إلا عند ارتباطهما بأسباب الكلام ورسالة يراد توصيلها ويقصد إفهامها، والرسالة المبلغة ليست إلا المعاني القائمة في صدور الناس المقصودة في أذهانهم المختلجة في نفوسهم المتصلة بخواطرهم.[٤]

مدخل إلى سورة (الكافرون)

وهي من السور المكية التي ارتبط نزولها بموقف حدث للرسول صلى الله عليه وسلم مع كفار مكة، فقد اخرج الطبراني وابن حاتم عن ابن عباس ان قريشا دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يعطوه فيكون أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، فقالوا: هذا لك يا محمد وتكف عن شتم آلهتنا ولا تذكرها بسوء، فان لم تفعل فاعبد آلهتنا سنة، قال

---

(١) ينظر: كتاب التعريفات، الجرجاني، ١٧٧.

(٢) الدلالة الايحائية في الصيغة الافرادية، د.صفية مطهري ٢٠٤.

(٣) اقنعة النص، سعيد الغانمي ٥٠-٥١.

(٤) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ ٧٥/١، النظريات اللسانية والبلاغية والادبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، محمد الصغير بناني ٧٢.

حتى أنظر ما يأتيني من ربي، فانزل الله (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) إلى آخر السورة. وفي رواية أخرى: أخرج عبد الرزاق عن وهب قال كفار قريش للنبي صلى الله عليه وسلم: أسرّك أن تتبعنا عاماً، ونرجع إلى دينك عاماً، فانزل الله (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) إلى آخر السورة [1].

يتضح مما سبق الدور المهم الذي تنهض به أسباب النزول، فهي تمثل الظروف والأحوال التي رافقت القول أو تسببت فيه، والوقوف عليها يعين دارس القرآن على فهم آياته فهماً صحيحاً وعلى نحو عام لا سبيل إلى الكشف عن دلالات التراكيب إلا من خلال الإحاطة بالظروف والأحوال التي ترافق الكلام، لأن "الجملة خاضعة لمناسبات القول وللعلاقة بين المتكلم والمخاطب، ولا يتم التفاهم في أية لغة إلا اذا روعيت تلك المناسبات، وأخذت العلاقة بين أصحابها بنظر الاعتبار"[2].

من هنا كان لا بد من هذه الوقفة عند ملابسات وأسباب نزول هذه السورة لأنها – أسباب النزول – عنصر هام يفسر إلى جانب عناصر أحدى الصياغات التركيبية التي اتسمت بنسق التأليف الذي يرمي إلى تحقيق دلالات معينة ومقاصد يراد توصيلها إلى المخاطب.

تحليل السورة

يأخذ الخطاب في هذه السورة الكريمة أبعادا متعددة لا يقل أي منها أهمية عن الآخر، بيد أنها في مجملها تصب في منبع واحد يتمثل في هذا النظم المعجز، وسنحاول في هذه الدراسة تأمل السمة الخطابية التي انطبعت بها السورة، وهي تسير على أنماط من المماثلة التركيبية والمغايرة الدلالية، وكان للضمائر دور بارز وجلي في تشكيل هذه الأنماط، ولاسيما أننا ازاء منظومة من الضمائر تحمل طابعا حضوريا مباشرا (متكلم – مخاطب) اقترنت بالسورة من اللفظ الأول فيها إلى اللفظ الأخير، وكان ذلك دافعا أساسيا للباحثتين لدراسة هذه السورة.

إن سمة الحضور – كما أسلفنا – والخطاب المباشر تظهر من اللفظ الأول في السورة، وهو فعل الأمر (قل) بدلالته الأمرية، التي تقتضي حضور المخاطَب، أعقبه أسلوب آخر يحمل طابعا حضوريا أيضاً، وهو النداء (يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ)، بيد أن مع النداء حدث تحول

(١) ينظر: أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، ٨١٤-٨١٥. وهو كتاب في حاشية تفسير الجلالين.

(٢) في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي ٢٢٥، وينظر التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم وحيد العزاوي، ١٤٧.

في الإحالة الضمائرية، ومن ثم تبادل في أسلوب الخطاب، إذ تحول المخاطب (الرسول ﷺ) إلى متكلم / مخاطب.

وبعد ان كان الخطاب من الله سبحانه (إلهياً) إلى مخاطب بشري، تحول بفعل النداء إلى بشري – بشري، وان كان هذا النداء وما سيليه املته الإرادة الإلهية المتمثلة بفعل الامر (قل) فهو "كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص منصوص فيه على انه مرسل بقول يبلغه"[١]، والمخاطب البشري هذه المرة هم الكافرون موظفا في ذلك النداء – كما أسلفنا–، وعندما يصحب النداء الأمر تتولد دلالات تعمد إلى تهيئة نفس السامع وإعدادها لتلقي الخطاب، لأنه يوقظ النفس، ويلفت الانتباه، وينبه المشاعر، فإذا ما جاء بعد الأمر أو النهي أو الاستفهام صادف نفسا مهيأة يقظة، فيقع منها موقع الإصابة، حيث تتلقاه بحس واع وذهن متنبه[٢].

وعرف المنادى بلفظ (الكافرون) لتنهض هذه اللفظة بوظيفة حجاجية، لان دلالاتها العامة من الناحية الإخبارية تقوم على قسمين: قسم منطوق هو معنى الكلمة، اي "جاحد النعمة"، وقسم مقتضى هو أنه "أُنعم عليه"، إذ "توجد نعمة" وهي الرسالة الإسلامية، وتتمثل خصوصية لفظة (الكافرون) في كونها مسرحا لظهور المنطوق والمقتضى معا، فهما لا ينفصلان، إذ منطوقها يؤدي إلى مقتضاها، ومقتضاها في منطوقها، أو في الأقل ينحدر منه، فهي تحمل في الوقت نفسه تهمة من جهة المنطوق حقيقة من جهة المقتضى، انها اتهام في ضوء حقيقة[٣]، ودليل يؤذن بطلان معتقدهم، وان ما يدعو الرسول إليه من توحيد الله سبحانه هو الحق، فضلاً عن أن وصف (الكافرون) جاء "تحقيرا لهم وتأييدا لوجه التبرؤ منهم وإيذانا بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بما يكرهون، مما يثير غضبهم"[٤].

وما دام معتقد جماعة المخاطبين جعل منهم كفاراً إنطلاقا من كونه باطلا، فلابد من ان يكون من أولى أوليات المتكلم الجهر بعدم إتباعه لمعتقدهم وهو عبادة الأصنام، من هنا نجد قوله تعالى **(لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)** في غاية الصرامة والحسم الذي يمتد إلى جانب المقال والمقام، ليترسم بذلك منهجا اختطه الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ومن بعده أمته، والبؤرة هي (العبادة) والتوجه فيها، وهو مرتبط بالمقام الذي يتمثل هنا بأسباب النزول، والعرض الذي تقدم به الكفار.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/٥٨٠.
(٢) ينظر: علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ٣٣٦.
(٣) ينظر: الحجاج في القرآن الكريم من خلال اهم خصائصه الأسلوبية، د. عبد الله صولة ١/١٢٣.
(٤) التحرير والتنوير ٣٠/٥٨١.

لذلك جاءت الصياغات التركيبية في السورة لتعبر عن موقف الرسول تعبيرا سمته القوة والفوقية التي مبعثها يقينه بان عبادة الله هي الحق، لذا نجد ان النفي متوجه نحو فعل العبادة في أول كلام جاء بعد النداء ليتضح بذلك المسار والمنهج في قوله (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)، من خلال النفي بـ (لا) التي أحالت دلالات نفي الفعل إلى المستقبل البعيد، مع انه يمكن يفيد استمرار الحدث من دون التقيد بماض او حاضر او مستقبل(١).

والفاعل هو الضمير المستتر في قوله (لااعبد) العائد إلى الرسول ﷺ، وهنا نشهد حالة من التوحد بين الفعل والفاعل، فضلا عن إفادته الاختصار، لان الفاعل ولاسيما الضمير المستتر يعد جزءا من الفعل(٢).

وكما أسلفنا فان موضوع (العبادة) يعد بؤرة ارتكاز، لأنها في السورة "فكرة يدور حولها النص ويشير إليها"(٣)، متخذا البيان القرآني من ضمير المتكلم (أنا)، والمخاطب (انتم) وسيلة لرسم المواقف وبيان توجه الطرفين في العبادة، وجاء الكلام محكيا على لسان الرسول ﷺ عارضا لموقفه من الأصنام وعبادها، وهذا الموقف وان كان مأمورا بقوله من الله سبحانه وتعالى، إلا انه يعبر في الوقت نفسه عن موقفه هو عليه الصلاة والسلام، فضلاً عن ان الخطاب بصيغة المتكلم يظهر ثقة المتكلم بخطابه، فارضا سلطته على المخاطبين في عرض قضيته، ومخبرا إياهم في الوقت نفسه عن علمه بموقفهم حيال عبادة الله سبحانه، وذلك في قوله تعالى (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)، وهنا تكمن قمة التحدي للكفار من خلال هذه الدفقة التعبيرية القوية التي أتت من التشكيل الصوتي للألفاظ، مع تكرار (لا) النافية التي يخرج معها الكلام في كل مرة بتنغيم سمته القوة، فضلا عن تعدد مواضع النبر ليس في هذه الآية حسب وإنما على مستوى السورة، ويظهر ذلك جليا في مواضع معينة، ولا سيما النفي بـ (لا) والضمائر والألفاظ التي تلي حرف النفي "وهذا يعني ان الاصوات والمقاطع المنبورة تنطق بدرجة تنغيمية أقوى واشد"(٤).

من جانب آخر جاء الضمير (انتم) ليشير إلى الجماعة المخصوصة بخطاب النبي ﷺ، والنفي هنا واقع على الضمير (ولا انتم) لتتشكل بذلك حال يمكن ان نطلق عليها بالقطيعة المنهجية التي ولدها التناقض العقائدي في التوجه بالعبادة، من هنا تعد هذه الآية

(١) ينظر: معاني المضارع في القرآن الكريم، حامد عبد القادر، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء ١٢/، ١٩٦٠م: ١٥٥.

(٢) ينظر: شرح الرضي على الكافية، رضي الدين الاستربادي ٤٢٦/٢.

(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي ابراهيم الفقي ١٦٨/١.

(٤) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم ١٢٢.

الكريمة كشفا وقراءة لبواطن الكفار المخصوصين بالخطاب في الزمن الذي نزلت فيه والزمن اللاحق الى يوم القيامة، مفندا عليه الصلاة والسلام عرض الكفار عليه ومكذبا إياهم في أن يعبدوا الله سنة مع الرسول مقابل ان يعبد الرسول ﷺ الأصنام معهم سنة، والذي يؤكد ذلك "أنه لما خاطبهم بالصورة الاسمية قائلا (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) نفى عنهم العبادة الحقة بالصورة الاسمية أيضا، فقال (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) فانهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات وهو تناظر جميل"[1]، يبرزه تكرار صيغة اسم الفاعل (الكافرون – عابدون).

ونجد أن التعبير عن الأصنام وعن الله سبحانه وتعالى جاء بـ (ما) الموصولة وهي "اسم مبهم في غاية الإبهام حتى انها تقع على كل شيء، وتقع على ما ليس بشيء"[2] والمعروف عند النحاة أنها لغير العاقل، بيد أنها في هذه السورة عُبِر بها عن الذات الإلهية، وهذا دليل أنها تقع على من يعقل أيضاً[3]، وفي قوله (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) لا يصح الا لفظ (ما) لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية الكريمة، فهي واقعة على معبوده ﷺ على الإطلاق، لان امتناعهم عن عبادة الله ليس لذاته سبحانه، بل كانوا يظنون انهم يعبدون الله ولكنهم كانوا جاهلين به، فقوله (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) اي لا انتم تعبدون معبودي، ومعبوده ﷺ كان عارفا به في حين هم جاهلون به[4].

وبالمقابل تأتي الآية الكريمة (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ) ليتكرر فيها موقف الرسول ﷺ من عبادة الأصنام، ولكن بصياغة تركيبية موازية للاية السابقة، والوقفة ها هنا لا بد من ان تكون عند الضمير (انا) الذي برز معادلا لفظيا على مستوى التركيب ومعادلاً دلالياً على مستوى الموقف، وتحديد المسار يقتضي هذا الوضوح والبيان، وتعبير الرسول ﷺ عن ذاته الشريفة بالضمير المنفصل (انا) بعد ان عبر عنها في اية سابقة بالضمير المستتر، يعد قمة في الوضوح والبيان، إذ نشهد تدرجا في الخطاب تجسد في الضمائر من الاستتار إلى الظهور:

لا أعبد ← ولا أنا عابد

وهذا التدرج على مستوى اللفظ اقتضى تدرجا آخر على مستوى التركيب، فنفي الرسول عبادة الأصنام عن نفسه جاء بالصيغتين: الفعلية والاسمية، (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ)

(١) التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي ٢٩.
(٢) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية ١٣١/١.
(٣) ينظر: بدائع الفوائد ١٣٣/١.
(٤) ينظر: بدائع الفوائد ١٣٣/١.

و (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ) وبالفعلين: المضارع والماضي (تعبدون) و (عبدتم). ونفى عن الكافرين العبادة الحقة بصيغة واحدة مرتين هي الصيغة الاسمية (وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)، ومعنى ذلك أنه عليه الصلاة والسلام نفى عبادة الأصنام عن نفسه في الحالتين الثابتة والمتجددة في جميع الأزمنة، وهذا غاية الكمال، في حين نفى عنهم بالصيغة الاسمية فقط، فإصراره عليه الصلاة والسلام على طريقه أقوى من إصرارهم، وحاله أكمل من حالهم، والنفي عنه ادوم وابقى من النفي عنهم.(١)

ووسط هذا التنوع التركيبي في هذه الآيات الكريمات نشهد توظيفا على أروع ما يكون للألفاظ ولاسيما الضمائر ويقف على رأس هرمها قوله (ولاانا)، إذ مع هذا الضمير تستحضر أكثر من دلالة، سنحاول الوقوف عندها في أثناء البحث.

اما في قوله تعالى (وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ) فيرتبط ظهور الضمير بعظمة الموقف لتثبيت عقيدة التوحيد وهدم عقيدة الشرك، ولاسيما أن المخاطبين هم كبار قريش وسادتها، فحضور شخص الرسول انما استدعاه المقام و "الحضور والذاتية انما يتكونان في المواجهة، ويتصف الصراع في الواقع بأنه احد علامات الحضور الأساسية، فالإنسان لا يمكن له ان يتكون ذاتا إلا إذا افلح في ان يعيش الصراعات دون أن يضيع فيها"(٢). وكما اسلفنا فانه يخاطب من أخذ منهم الكبر مآخذ، فلا بد من أن تتسم لغة التخاطب معهم بالفوقية والقوة والتعالي الذي يراد منه إعلاء كلمة التوحيد، وتيئيس المخاطبين من الرجوع عن معتقده عليه الصلاة والسلام، من هنا لا بد من أن "يرتكز مؤدى الخطاب على وجود ذات (المخاطِب) الذي يهدف إلى خلق شحنة دلالية داخل كيان الخطاب ليصبح فعلا كلاميا مدركا ومفيدا يبرز خواص نظام تفكيره وفعله العقلي الهادف إلى إثارة ردود خطابية، وإيجاد خط دلالي متواصل يحقق غرض التفاعل والتواصل"(٣) وتحقيق التواصل بين الرسول ﷺ (المخاطب) ومخاطبيه يقتضي هذا الأسلوب، لان لغة المهادنة لا تجدي نفعا مع هؤلاء القوم. ومن العوامل التي زادت من قوة هذا التفاعل والتواصل.

(١) ينظر: التعبير القرآني ٢٩-٣٠.
(٢) معجم الانا، احمد حيدر، المعرفة، العدد ٤٩٦، السنة ٤٣-١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م: ٧٨.
(٣) البحث الدلالي في كتاب سيبويه، دلخوش جار الله حسين دزه يي ١٩٢.

التكرار

فالإدراك العميق والرؤية الشاملة لا تنفك عن خطاب الرسول ﷺ الذي ينطق بالحقائق التي يؤمن بها هو، والحقائق التي يعتنقها الطرف الأخر، فقد سبق في علم الله سبحانه وتعالى انه سيموت على كفره من قصد بهذا الخطاب، وهذه السورة من دلائل نبوءته عليه الصلاة والسلام [١]. لذلك جاء قوله تعالى (وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ) تكراراً للآية رقم (٣)، إذ حصل من خلال هذا التكرار توليد للمعنى الأصلي[٢]، والتكرار وان ظهر على شكل مطابقة تامة في التركيب لأية سابقة، ولكننا نجده منبثا على مستوى اللفظ، وان اختلفت الصيغ الصرفية للألفاظ، فقد ورد لفظ العبادة بالصيغ الآتية (اعبد – تعبدون – عابد – عبدتم) مع تكرار اللفظ بالصيغة نفسها، واقترن تكرار هذه الصيغ بتكرار (لا) النافية و(ما) الموصولة وتكرار الضمائر، مولدا بذلك تماسكا نصيا، "فالتكرار زيادة على كونه يؤدي وظائف دلالية معينة، فانه يؤدي كذلك إلى تحقيق التماسك النصي، وذلك عن طريق امتداد عنصر ما من بداية النص حتى آخره، هذا العنصر قد يكون كلمة أو عبارة أو جملة أو فقرة، وهذا الامتداد يربط بين عناصر هذا النص، بالتأكيد مع مساعدة عوامل التماسك النصي الأخرى"[٣]، ومن العوامل التي أوجدت هذا التماسك في السورة وكان عامل ربط.

العطف بالواو

إن وجود اداة الربط هذه قد اقتضاه سياق السورة الذي بني على نسق من المغايرة والمخالفة على مستوى المبنى والمعنى، لذلك "كان التعليق بالأداة – هو الربط – أساساً مهماً في فهم التركيب، لان التركيب العربي يعتمد في معظم صوره على الأداة في تلخيص العلاقة بين أجزائه"[٤]، ولا يخفى ما للواو من دور في تشكيل العلاقات بين الجمل وذلك يظهر في مستويين:

الأول: مستوى تركيبي نحوي يرتبط بوظيفة الواو النحوية في عقد "علاقة مشاركة بين الجملتين في الحالة الإعرابية والوظيفة الدلالية"[٥].

---

(١) ينظر: الجامع لاحكام القرآن، القرطبي ١٥٤/٢٠، التحرير والتنوير ٥٨٣/٣٠.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير ٥٨٣/٣٠.
(٣) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، د. صبحي ابراهيم الفقي ٢٢/٢.
(٤) أساليب العطف في القرآن الكريم، د. مصطفى حميدة ٤٥.
(٥) البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب ٣٢٢.

والثاني: مستوى دلالي، إذ "يقتضي العطف مغايرة في المعنى تحصل بها فائدة، ولولا المغايرة والفائدة لاصبح استعمال العطف ضربا من ضروب اللغو. والمعلوم ان المعنى هو الغاية التي ينشدها كل متكلم وكل متلق"(١).

ولا يوجد افتراق بين هذين المستويين، فاحدهما يكمل الأخر، ومن خلال امتزاجهما وائتلافهما تتحقق المقاصد، ولا يمكن النظر إلى التبادل الضمائري الحاصل في السورة إلا من خلال الوقوف على العلاقات التي كونت المستوى الأول (التركيبي)، فأنتجت المستوى الثاني (الدلالي).

وإذا عدنا نسترجع هذه المنظومة المتشابكة من الضمائر المستترة والمتصلة والمنفصلة في السورة سنجدها على وفق النسق الآتي:

قل	←	أنت	ضمير مستتر
لا أعبد	←	أنا	ضمير مستتر
تعبدون	←	الواو	ضمير متصل
ولا أنتم عابدون	←	أنتم	ضمير منفصل
اعبد	←	أنا	ضمير مستتر
ولا أنا عابد	←	أنا	ضمير منفصل
عبدتم	←	التاء	ضمير متصل والميم للجماعة
ولا أنتم عابدون	←	انتم	ضمير منفصل
اعبد	←	انا	ضمير مستتر

نجد من خلال هذه المنظومة كيف كان التعبير عن أطراف الخطاب، وبأي الصيغ الضمائرية عُبر عنهم؟ ولنبدأ بالطرف الأول، وهو الرسول ﷺ، إذ بدا مأمورا من الله سبحانه (قل – أنت) بعدها توالت أنساق من الجمل الاسمية والفعلية التي تحيل إلى نفي عبادة الأصنام عن نفسه ﷺ، ولكن بصيغة ضمائرية ثابتة هي (أنا) مع اختلاف واحد هو التبادل ما بين المنفصل الظاهر وجاء مرة واحدة، والمستتر وجاء ثلاث مرات، وهذا التبادل تبع تنوع الصياغات التركيبية بين الفعلية والاسمية، وكل ذلك يوحي بل ويؤكد ثبات منهج الرسول عليه الصلاة والسلام، ولما كان عرض الكفار متوجهاً إليه – كما موضح في أسباب النزول – اقتضى ذلك الرد بهذه الصيغة من الضمائر، ولا ننسى أن هذه (الأنا) تمثل أمة في قيمها وفكرها وعقيدتها.

(١) أساليب العطف في القرآن الكريم ١٢٠.

أما الطرف الثاني (الكافرون) فنجد انه قد توالت ضمائر عديدة ومتنوعة للتعبير عن هذا الطرف، وذلك يوحي بغموض في المنهج وغياب للشخصية، والدليل على ذلك اندثار عقيدتهم باندثار إعلامها، وخلود عقيدة التوحيد.

من هنا وعندما تختتم هذه السورة بقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ يطالعنا تلخيص لما سبق بطريقة تترك لكل طرف ان يتمسك بعقيدته، وان كان ذلك يلقي على الطرفين بتبعات – ثواباً وعقاباً – يقتضيها ما سلك من طريق.

والسمة التقابلية في الضمائر ما زالت قائمة من الناحية التركيبية:

لكم دينكم	مخاطَب	جمع
لي دين	مخاطِب	مفرد

وقد تقدم المسند على المسند إليه في كلتا الجملتين، ليفيد قصر المسند إليه على المسند، أي دينكم مقصور عليكم لا يتجاوزكم إلى الكون لي، وديني مقصور على الكون بأنه لا يتجاوزني إلى كونه لكم، لأنه محقق عدم إسلامهم، فالقصر قصر افراد، واللام في الموضعين لشبه الملك، وهو الاختصاص أو الاستحقاق[١].

وجاء المسند إليه (دينكم) معرفا بالإضافة إلى الضمير، مقيدا بذلك دلالة اللفظ بحدود ضيقة لا تخرج عن دائرة المخاطبين، اما قوله (ولي دين)، فجاء لفظ (دين) من دون إضافة، ويقول المفسرون ان الياء محذوفة للتخفيف مع بقاء الكسرة على النون[٢]، ومع ذلك فان حذف الياء أفاد إطلاق دلالة اللفظ، فلا يقتصر على المتكلم وحده عليه الصلاة والسلام، بل يمتد ليمثل امة، وان كان جماعة المخاطبين غير مشمولين بذلك والله اعلم، لان السورة أخبرت أنهم لن يعبدوا الله سبحانه، وسيموتون على الكفر.

لقد أجملت الآية الأخيرة معاني ودلالات تختزل كل كلام وتقطع على المخاطب كل جدال او مراجعة، "فجوامع الكلم في هذا النوع من الإيجاز الذي يكتفي فيه بألفاظ قليلة لكن سليمة من كل حذف لبلوغ أشمل المعاني وأبعدها تصورا في الخواطر والأذهان، بحيث لا يبقى لأحد بعد إطلاقها الأمل في إحراز أقل منها لفظا ولا أكثر منها معنى، فهي حقائق عليا في شكلها ومضمونها"[٣]، والله اعلم.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٥٨٤/٣٠.

(٢) ينظر: المصدر نفسه ٥٨٤/٣٠.

(٣) البيان والتبيين ٢٨/١، وينظر النظريات اللسانية والبلاغية والادبية عند الجاحظ، ٢٦٧.

المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة

١) أساليب العطف في القرآن الكريم، د. مصطفى حميدة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٩م.

٢) أسباب النزول، جلال الدين السيوطي، وهو كتاب في حاشية تفسير الجلالين، دار المعرفة – بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٣) أقنعة النص، سعيد الغانمي، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد، ١٩٩١م.

٤) البحث الدلالي في كتاب سيبويه، ولخوش جار الله حسين دزه يي، مطبعة رون – السليمانية، ٢٠٠٤ م.

٥) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، عني بتصحيحه والتعليق عليه ومقابله أصوله: إدارة الطباعة المينوية، الناشر، دار الكتاب العربي – بيروت.

٦) البلاغة العربية قراءة أخرى، د. محمد عبد المطلب، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان، ١٩٩٧م.

٧) البيان والتبيين، ابو عثمان عمرو بحر الجاحظ، تحقيق: فوزي عطوي، دار مصعب – بيروت.

٨) التعبير القرآني، د. فاضل صالح السامرائي، مطابع دار الكتب للطباعة والنشر – جامعة الموصل، ١٩٨٨م.

٩) التعريفات، السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٠) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، ١٩٧٣م.

١١) التنغيم اللغوي في القرآن الكريم، سمير إبراهيم وحيد العزاوي، الطبعة الأولى، دار الضياء – عمان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

١٢) الجامع لأحكام القرآن، ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري القرطبي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٨٨م.

١٣) الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبد الله صولة، منشورات كلية الآداب بمنوبة، ٢٠٠١م.

١٤) الدلالة الإيحائية في الصيغ الافرادية، د. صفية مطهري، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣م.

١٥) شرح الرضي على الكفاية، رضي الدين محمد بن الحسن الاستربادي، تحقيق: يوسف حسن عمر، جامعة قاريونس – ليبيا، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
١٦) علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق – دراسة تطبيقية على السور المكية، د. صبحي إبراهيم الفقي، الطبعة الأولى، الناشر، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة، ٢٠٠٠م.
١٧) علم المعاني، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، الطبعة الثانية، مؤسسة المختار، دار المعالم الثقافية، القاهرة.
١٨) في النحو العربي نقد وتوجيه، د. مهدي المخزومي، الطبعة الثانية، دار الرائد العربي – بيروت، ١٩٨٦م.
١٩) النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال البيان والتبيين، محمد الصغير بناني، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، ١٩٨٣م.

الدوريات

١) معاني المضارع في القرآن الكريم، حامد عبد القادر، مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء ١٢، ١٩٦٠م.
٢) معجم الانا، أحمد حيدر، المعرفة، العدد ٣٩٦، السنة ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.